



اختيار موضوع البحث

الاختيار بالنسبة للطلاب الجامعي - الاختيار بالنسبة للباحث في التاريخ -
بعض القواعد - بعض الأمثلة .

إن أول مسألة تواجه الباحث المبتدئ في دراسة التاريخ هي مسألة اختياره موضوعاً للبحث . والمسألة بالنسبة للطلاب الذي يبدأ دراسته في المرحلة الأولى من الجامعة ، تختلف عنها بالنسبة للباحث الذي أخذ يتطلع إلى الدراسة العلمية المنتجة .

فالطالب المبتدئ في التعليم الجامعي لا يُنتظر منه في الغالب أن يقوم ببحث علمي مبتكر أصيل ، يستخلص فيه حقائق تاريخية مجهولة ، أو يكشف عن مجموعة من الوثائق لم تكن معروفة من قبل . ولكن المطلوب منه هو أن يتوفر على تحصيل وسائل الإعداد والتدريب التي تؤهله للعمل العلمي في المستقبل .

والطالب في أثناء دراسته الجامعية الأولى ، يختار بإرشاد أستاذه ، بعض الموضوعات المدروسة ، لا لكي يأتي فيها بجديد ، بل للتمرين والتدريب والاقتراب وهو في هذا يشبه دارس الكيمياء أو الطبيعة أو التشريح ، الذي يقوم بأداء التجارب المعروفة والتي ثبتت صحتها نهائياً لكي يتدرب ويعرف ما عرفه غيره من قبل .

ويستطيع طالب التاريخ أن يختار موضوعات متنوعة من الفروع التي يدرسها . ويمكنه أن يبحث موضوعاً عاماً ، مثل كتابة ملخص عام عن تاريخ ناپليون في حيز محدود . وهو يعتمد في ذلك على القليل من المراجع الأساسية عن هذا الموضوع التي يأخذها عن أستاذه ، أو التي يستخرجها بنفسه من كتب المراجع ، فيقتبس ويدون منها مذكراته . وينبغي أن يلاحظ وضع أرقام الصفات للكتاب أو الكتب التي أخذ منها ، على هوامش أوراقه ، حتى يمكنه الرجوع إلى تلك الكتب إذا اقتضى الأمر ذلك . ثم يجمع ما حصل عليه من المعلومات ، جاعلاً نصب عينيه التمييز بين مجموعاتها التفصيلية التي تتعلق كل منها بنقطة جزئية

محدّدة ، ثم يقارن ويمزج بين هذه الجزئيات بعضها وبعض . ثم يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه وشخصيته ، وتدرّجه في المناصب ، وحروبه في أوروبا ، ثم في الشرق ثم في أوروبا ، وحكومته وإدارته ، وظروف أوروبا في عهده ، ووقوف إنجلترا في سبيله ، وتألّب أوروبا عليه ، ثم سقوطه وحياته في المنفى . وسيتجاوز الطالب في هذه الحال عن كثير من التفاصيل والحركات المحلية ، ويكتفى بالمسائل الهامة ، سواء أكانت حوادث الحروب أم مشاكل السياسة الداخلية أم الخارجية * .

وبعد ذلك يتدرج الطالب فيختار جزءاً محدداً من الموضوع العام المشار إليه ، مثل حملة نابليون على روسيا في سنة ١٨١٢ . فيبحث الظروف التي أدت إلى تلك الحملة ، ويتتبع سيرها والمعارك التي حدثت ، ووصول نابليون إلى موسكو ، ثم ارتداده وإخفاقه وما لحق به من الخسائر ، وما ترتب على ذلك من النتائج في فرنسا وفي أوروبا . وهو في هذا سيبحث موضوعاً أضيق من الموضوع السابق ، ولكن بحثه سيكون بالضرورة أكثر عمقاً ، وإلمامه بتاريخ نابليون سيجعله أقدر على دراسة هذه الحملة الروسية .

ثم يتدرج الطالب إلى بحث نقطة تاريخية أكثر تحديداً ، مثل معركة واترلو في سنة ١٨١٥ . وهو في هذه الحال سيدرس الظروف التي أدت إلى هذه المعركة ، ويقارن بين القوى الحربية لكل من فرنسا وإنجلترا وبروسيا ، ثم يدرس أرض المعركة وخططها ، ويتتبع العمليات العسكرية ، وما قام به ولنجتون وبلوخر ، وحالة الجو ، وتأخر وصول النجدة الفرنسية ، ويوضح كيف هُزم نابليون ، ويشرح

* Lavissee, E. et Rambaud, A. : Histoire Générale, 12 vols. Paris, 1893-1901. vol. IX. 1800-1815.

The Cambridge Modern History, 12 vols. London, 1904-1910. Vol. IX. Napoleon.

Rose, J.H. : The Life of Napoleon I. London, 1929.

Rose, J.H. : The Personality of Napoleon. London 1929.

Ludwig, E. : Napoleon, trans. by Eden and Cedar Paul. London, 1929.

ولهذا الكتاب ترجمتان عربيتان ، فقد ترجمه عادل زعيتر عن الترجمة الفرنسية ، وترجمه محمود الدسوقي عن الأصل الألماني . وعلى الرغم من فائدة الترجمة إلى العربية فن الأفضّل لطالب التاريخ أن يقرأ الكتاب في أصله أو في ترجمة أوروبية له لكي يكون ذلك سبيلاً إلى التقدم في اللغة الأوروبية التي يختارها .

ما ترتب على ذلك من النتائج * . وإن بحثه للموضوعين السابقين سيجعله أقدر على دراسة هذه الناحية الأخيرة الأكثر تحديداً . وسيعلمه هذا التدريب التدريجي فائدة الإلمام بموضوع أوسع وانتقاله منه إلى نقط أكثر تحديداً . وسيعلمه هذا التدرج ضرورة الاهتمام بالجزئيات مع عدم إغفال الروح العام والنظرة العامة إلى العصر الذي يدرسه ، إذ لا بد من العناية بهاتين الناحيتين معاً على اتساق وتوافق .

ويلاحظ أيضاً أنه من بين التدريبات المفيدة ، للطالب في الدور الأول من دراسته الجامعية ، أن يختار كتاباً في موضوع بعينه — وليكن باللغة العربية في أول الأمر — ولتكن صفحاته ٣٠٠ مثلاً — ويلخصه في ١٠٠ صفحة أولاً ، ثم يلخصه في ٥٠ صفحة ثانياً ثم في ٢٠ صفحة ثم في ١٠ صفحات . ثم يطبق هذا على كتب أخرى أجنبية — ولا بد له من أن يُحسن معرفة لغة أجنبية واحدة على الأقل — وسيجد أنه قد أفاد فائدة طيبة ، وتعلّم القدرة على الاستيعاب والتركيز ، فضلاً عما يكسبه من المعلومات التاريخية الواردة في الكتب التي اختارها ، وما يجنيه من الحصيلة اللغوية والفكرية ، بالقراءة ، والترجمة ، والاقتباس ، والتدرب على الإيجاز والتركيز والكتابة .

وكذلك يستطيع الطالب أن يدرس بعض الوثائق الأصلية المطبوعة في بحث موضوع معين ، كما يمكنه أن يدرس بإرشاد أستاذه بعض الوثائق المخطوطة ، لكي يستخرج منها بعض الحقائق اللازمة لبحث مسألة معينة . وأحياناً يشترك بعض الطلاب مع أساتذتهم في دراسة بعض الأصول التاريخية ، ويقومون بنشرها نشرًا علميًا . ويكون هذا كله بمثابة تدريب وإعداد للمستقبل الذي يتطلع إليه دارس التاريخ .

ويلاحظ أن ما ينطبق على طالب التاريخ المنتظم في الدراسة الجامعية ، يمكن أن ينطبق على كل شخص لم تُتاح له فرصة التعليم الجامعي ، أو لم تُتاح له فرصة دراسة التاريخ بالجامعة ، ويشعر في نفسه بالميل إلى دراسة التاريخ والكتابة فيه .

Becke, A.F. : Napoleon and Waterloo. London 1939

Esposito, V.J. and Elting, J.R. : A Military History and Atlas of the Napoleonic Wars. London, 1964.

وهذا هو التدريب الذي قمت به بإشراف الأستاذ جرانت بكلية الآداب في القاهرة في ١٩٣١ وقبل صدور المرجعين المذكورين .

ولست هناك حدود أو موانع أمام الراغب في الاستزادة من سبل المعرفة ، ولكن لا بد من التزوّد بوسائل هذه المعرفة وأساليبها ، إذ لا تكفى الرغبة وحدها في بلوغ الهدف المنشود . وينطبق على هذا الدارس - العلماني - الراغب في دراسة التاريخ وكتابته ، ما ينطبق على الطالب الذي تخرّج في الجامعة ورغب في أن يمضي قدماً في دراسة التاريخ .

وحينما يتم الطالب مرحلة التعليم الجامعي ويحصل على درجة جامعية ، وينوى مواصلة دراسته للتاريخ ، فإن اختيار موضوع البحث يبدو في صورة جديدة . في هذه الحال يجب على الباحث أن يلاحظ أن عليه أن يختار بنفسه موضوع البحث الذي يروق له ، وعلى الأستاذ المشرف أن يتحقق من أنه يفعل ذلك . والعلاقة القديمة التي كانت قائمة بين الطالب وأستاذه ، ينبغي أن تتغير وتتحول إلى علاقة قائمة على أساس من المساواة ، وعلى تحمّل المسؤولية ، وعلى العمل العلمي المشترك ، وعلى النقد الحرّ والتقدير المتبادل . والباحث المبتدئ في هذه المرحلة الذي يُضطر إلى الخضوع لرأى أستاذه في اختيار موضوع البحث ، والأستاذ الذي يقبل ذلك ، أو الذي يحاول أن يُملئ على طلابه موضوعات معينة - كلاهما مخطئ . وصحيح أن الباحثين المبتدئين الذين يمكنهم الاستقلال في اختيار موضوعاتهم قليلون ، وربما لا يعرفون كل ما يتعلق بالعصر أو الناحية التي يرغبون في دراستها . ولكن الباحث يمكنه في هذا الدور استيضاح رأى أستاذه الذين يمكنهم إرشاده فيما غمض عليه ، دون أن يُملوا عليه رأياً معيناً ، إذ أن الاختيار النهائي لموضوع البحث التاريخي أو تعديله أو تركه إلى موضوع آخر ، ينبغي أن يُترك للباحث لكي يُقرر بنفسه ما يراه * .

والباحث في هذا الدور لا يستطيع أن يبحث أي موضوع كان ، إذ أن المطلوب هو أن يقوم ببحث أصيل مبتكر في العلم (original) ، ويكشف عن حقائق تاريخية جديدة . فلا يكون البحث في هذه الحال بناء على الرغبة فحسب بل بناء على ما يجب أن يُبحث أو ما يُمكن أن يُبحث . وقد يُقال إن الباحث لا يختار الموضوع التاريخي ، ولكن الموضوع التاريخي هو الذي يختار الباحث .

فعلى الباحث أن يرتاد المناطق المجهولة ، وأن يشحذ أسلحته وكفايته ، ويتحدث ، ويفكر ، حتى ينبثق أمامه الضوء الجديد .

فالباحث المبتدئ في هذه المرحلة الثانية من الدراسة ، قد يثير اهتمامه بعض المسائل في تاريخ اليونان القديم ، أو في تاريخ العصور الوسطى ، أو في تاريخ إيطاليا ، أو في تاريخ روسيا . فلكي يمضي في بحث إحدى هذه النواحي ينبغي عليه أن يعرف العلوم المساعدة الرئيسة المرتبطة بها . وإذا لم يكن يعرفها فيجب عليه أن يقرر من أول الأمر بصراحة : أهو مستعد أو قادر على أن يتعلمها ؟ أهو مستعد لأن يتعلم اليونانية القديمة أو اللاتينية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى أو الإيطالية أو الروسية مثلاً ؟ أهو مستعد لأن يتعلم ما يتصل بموضوعه من العلوم المساعدة الأخرى ؟ فإذا لم يكن مستعداً أو قادراً على أن يفعل ذلك وجب عليه أن يعدل عن المضي في بحث موضوع يُعوزه فيه الوسائل الضرورية ، وبممكنه أن يتجه إلى مجال بحث آخر يكون ذا خبرة بأصوله وقواعده أو على استعداد لأن يحصل ذلك .

والمبتدئ في البحث التاريخي العلمي ينبغي أن يراعى بعض المسائل . فليس من الضروري دائماً تحديد عنوان الموضوع من أول الأمر . ويكفي تحديد العصر والنواحي التي تصلح موضوعاً للبحث في نطاق معين . أما التحديد النهائي فيتم في الغالب بعد المضي شوطاً في القراءة والبحث . وعلى الباحث أن يحدد بصفة تقريبية الزمن الذي سيخصصه لبحث موضوعه . والباحث المبتدئ محتاج إلى بعض الوقت لكي يتقصى فيه أحوال العصر الذي يكون موضوع بحثه جزءاً منه . وتحديد الوقت التقريبي مرتبط بتحديد الموضوع . فينبغي ألا يختار موضوعاً طويلاً ، إذ أن اختيار ناحية أو مسألة محددة يُمكنه من إنجاز بحثه في وقت مناسب ، مع الإتيان فيه بجديد على العلم ، ويحسن أن تكون جزءاً من موضوع عام مترابط البناء ، لكي يتسع المجال أمام الباحث لمواصلة دراساته في المستقبل .

فلا يجوز للباحث الذي يريد أن يكتب بحثاً علمياً تاريخياً – لا يجوز له أن يتخذ تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعاً للبحث ، لأنه موضوع طويل .